"ربيع القبّار"

-إهداء-

لكل من ضاقت به الدنيا.
لنا في الخيال دنيا تنقذنا.

تلتهم النيران كل مكان.

ويرتفع الدخان معلنا عن اصابة الطائرة.

صوت الإنذار يصم الآذان.

رؤية مشوشة، وأنفاس متلاحقة.

بحث عن زر الإطلاق.

لا مفر من الموت، لكن ان تموت حرقاً ... ليس خياراً.

يرتفع الأدرنالين في الدم، وتكاد الأنفاس تنقطع.

توشك الطائرة أن تنفجر.

أهذه هي النهاية ؟؟ ربما ...

.

.

اندفع بقوة خارجاً ، بعد أن كان الموت وشيكاً.

لحظات قليلة و انفجرت الطائرة.

المياه تقترب أكثر فأكثر ، و ما من يابسة قريبة.

" يا الله "

ارتفع الصوت في الأرجاء.

لا أحد سيستمع ... لكن الله وحده يفعل.

مرت أيام بلياليها متمسكاً بقشة أمل.

لكن .. إلى متى يدوم.

قواه تنهار .. والمياه تجتاح أنفاسه.

هل سيموت غرقاً ... ربما.

.

.

لا تزال أنفاسه منتظمة.

ظلام دامس ... برودة مهلكة ... هل هذا خيال!!

يقترب ضوء خافت، يفتح على اثره عيناه ببطيء.

عينان كالزمرد الأخضر، شعر كالليل، وجه كالبدر، جسد ممشوق.

لكن ...

زيل كأسماك البحر لامع باللون الأحمر.

من جديد، هل هذا مجرد خيال.

يتفقد المكان من حوله، فقاعة من الهواء محيطة به، وحورية غاية في الجمال توجهه.

على مسافة ليست ببعيدة، مكان أشبه بمملكة، تحيط بها شيء أشبه بفقاعة ضخمة.

بعد دقائق يغشى عليه.

.

.

.

فتحت عيناي بعد مدة لا أعلمها، أيام بلياليها ربما، لكن ما أثار دهشتي بعد نجاتي؛ هو المكان الذي أنا به الآن.

جدران من المرجان والصخور البحرية، يمكنني أيضاً رؤية الشعاب المرجانية في الأرجاء، فوق سرير مخملي وكأني أسبح في ماء رخو، ويغطيني ربما جلد حيوان ما؛ لكنه بغاية الدفيء رغم البرودة القاتلة.

الى جواري رجل أكاد أجزم أنه تخطى الخمسين، لكنه ليس مثلي ومثل رفاقي، فقط لديه الى جوار أذنيه ما يشبه الخياشيم، وعليه رداء لامع وكأنه من حراشف الأسماك.

- حمد لله على سلامتك بني.

وجه الكلام إلى بصوت رخيم، ومطمئِن ربما.

- شكراً جزيلاً لك سيدي... ولكن أين أنا؟؟

- فقط نادني بعمي عامر... طبيب المملكة أنا... وأنت هنا في المملكة بعد أن أنقذتك نور.

عجب يتلوه عجب، ليس باسمه لكن بالمملكة، أي مملكة هي.

- عذراً عمي عامر لكن أي مملكة هي؟ ... ومن نور؟

مسح على رأسي برفق مع ابتسامته المطمئنة:

- لا بأس عليك يا بني فقط ارتاح... سأرسل لك الطعام والشراب حتى تستعيد عافيتك، وكل شيء ستعرفه... لا تقلق من شيء.

أومأت برأسي فخرج من الغرفة وبعدها أتاني أحدهم بالطعام، حسناً كله طعام بحري لكنه بكل اللذة التي لم أتوقعها، لربما لأني لم أتناول الطعام من فترة.

.

.

مرت عدة أيام ويأتيني "عم عامر" كل عدة ساعات، يطمئن عليّ ويغير ضماداتي، ويهديني بعض الطمأنينة في هذا المكان الغريب.

في أحد الأيام شديدة البرودة دخل علي شخص غيره ومن يأتيني بالطعام، وجه رأيته من قبل، عينان كالزمرد الأخضر، وشعر أسود طويل كالليل، وفستان لامع أحمر اللون كحراشف الأسماك كما رداء ذاك العم.

كانت تلك الفاتنة تحمل بيدها غطاء كالذي معي، وبصوت رقيق حازم:

- آمل أن المكان ليس بارداً كثيراً عليك أيها الضيف... أخبرني عمي عامر بأنك أصبحت بحال أفضل.

لن أقول اني صمدت أمامها، لكني بالطبع لست منكباً على وجهي أتبع شهواتي وغرائزي، فأومأت برأسي مردفاً:

- الفضل لعم عامر بعد الله أني أصبحت بأفضل حال... لكني لازلت لا أعلم أي شيء عن هذا المكان ولا عن منقذي لأرد له الجميل...

- لست بحاجة لرد أي شيء... أنت فقط وقعت في طريقي ففعلت ما يمليه علي ضميري... أما عن المملكة فهي مملكة "إلكدونيا".

يبدو أنها "نور" التي أُخبرت باسمها، ولكن مملكة "إلكدونيا" لا أدري أين تقع على الخريطة أو من مَلِكها، لتقطع أفكاري بصوتها:

- لابد أنك من سكان السطح ولا علم لك بمملكتنا... لا بأس فنحن سكان البحر ولا نخرج كثيراً.

بكلماتها اتضحت أفكاري، إذاً غرابة المكان والأفراد هنا لانهم ليسوا بشراً، أو ربما أنا الغريب عنهم هنا.

ناولتني الغطاء الذي كان بيدها، ليلامس كفي كفها لثوانٍ، ويقشعر جسدي لِلَمستها.

جسدها دافئ بعكس المكان، وصوتها رغم حزمه حنون، أما عن نظرتها وسيرها وجلوسها فهي كأميرة من أميرات الخيال، نبيلة التصرف والكلام.

استأذنتني للخروج وأردفت أن أحدهم سيرافقني لخارج الغرفة قريباً.

بعد عدة ساعات من الانتظار، وبعد أن تناولت طعامي الذي اعتدته في هذا المكان، يطرق بابي أحدهم وبعد الاستئذان يدلف الى الغرفة أحد الرجال، متوسط القامة، شعر أسود طويل، بشرة بيضاء، عينان سوداوين، ورداء من حراشف فضية اللون.

جلس الى جواري على أحد الكرسي، بوجه مبتسم وصوت هادئ تكلم:

- مرحباً بك يا ضيفنا في المملكة... آمل أنك بحال جيدة.

- بأفضل حال والحمد لله.

- دام حمدك يا رفيق... دعني أعرفك بنفسي، أنا جهاد وقد كلفتني نور بعمل غاية في الأهمية... أتدرك ما هو.

هززت بكتفي، ليردف:

- سأكون مرافقك طوال مدة تواجدك معنا، وحتى نجد طريقة نعيدك بها الى ديارك... لذا هلا عرفتني بك.

أسعدتني فكرة رجوعي للديار، فبانفجار الطائرة ظننتها النهاية، وها أنا ذا ضيف لأحد الممالك المخفية عن العالم.

- سعيد بلقياك يا جهاد... أنا مجاهد ضد الاحتلال الغاصب... وإسمي هو شمس الدين.

اختفت الابتسامة عن محياه، وظهر على وجهه علامات الحزن والاستياء.

- احتلال آخر.

صمت لبرهة حتى عادت البسمة على وجهه.

- سأدعو الله أن يعود موطنك حراً... وتعود إليه سالماً.

- سيعود حرا حتماً... حتى وإن لم أعد.

أومأ برأسه وهب واقفاً.

- حان وقت خروجك من هذه الغرفة... المرضي بحاجة للحركة حتى تتعافى قلوبهم ليستعيدوا عافيتهم.

لف الغطاء حول كتفاي، وأمسك بيدي حتى أنهض، يمكنني الشعور بالفعل أن إصاباتي تكاد تلتئم، وأني بحاجة للحركة، فجسدي يكاد يتخشب من جلوسي هكذا.

وها أنا ذا خارجاً بمكان أعجب من العجب، لربما رأيت مشهداً كهذا في برنامج للأطفال، حينما يتكلمون عن الحوريات وعالم البحار، لكن يبدو أني دخلت إلى أحدها.

بنايات ليست عالية مصنوعة من الشعاب المرجانية والصخور، هناك أيضاً أشجار لا أعهدها على الأرض، الأطفال يلعبون بسعادة، الرجال يعملون ونساءهم يساعدون، والجميع كحال "عمي عامر"، ويحيط بكل هذا الجمال شيء أشبه بفقاعة هواء ضخمة، وكأنها كرة زجاجية ضخمة، وهاهو "جهاد" إلى جواري يحادثني ليمحو وحدتي، ويحادثني عن مملكته الحبيبة.

وما أثار حيرتي لهذا المكان أكثر، رغم طبيعية الأشخاص هنا.

"لماذا الجميع حافي القدمين".

.

.

منذ أيام حينما كنت خارجاً، سمعت صوتًا هز كياني، أشرقت السماء ليلاً للحظات ثم خفت الضوء، ووجدتها تمطر بقطع معدنية، منها الكبير ومنها الصغير، ثم سمعت صوت استنجاد خافت، وبعد بحث وجدته صادراً من أحد سكان السطح.

خشيت الأذى منه أو بطش من معه ففرت هاربة، لكن شيء ما دفعني للعودة لنفس المكان؛ لأجده متعلقاً بقشة أمل، خاوي القوى لكن بعزم كالجبال، وما أن وجدته وقد فقد طاقته وبدأ يغرق عميقاً حتي هممت لإنقاذه.

أخذته لمملكتي، وبرغم خطورة فعلتي؛ إلا أنني لم أتمكن من تركه، وطلبت حينها من عمي عامر أن يطبب جراحه، ويتابعه حتى يتماثل بالشفاء، وأيضاً أن يبلغني بأخباره.

بعد أيام وجدته رغم برودة الأعماق؛ فقد استعاد عافيته، فقط حينها أدركت ملامحه، بلون بني وكأن الشمس قد أحرقت بشرته، جسده رغم صغره ممشوق، وشعره القصير المجعد على عكسنا، ونظراته رغم قسوتها فهي ممتلئة بالأمل.

رغم أن رجالنا لا يقارنون بأحد، إلا أني فكرت؛ لربما يكون تفكير سكان السطح، وقسوتهم التي أحرقتها الشمس هي ما نحتاج، ربما ينقصنا حرارتهم، أو شيء منهم قد يساعد.

- هل أدركت الآن لماذا أطلب منك هذا الطلب يا جهاد.

.

.

أومأت برأسي موافق على كلماتها؛ فأنى لي معارضتها مع هذا الإصرار، وبالنهاية هي الأميرة هنا.

توجهت لغرفة ضيفنا، فمنذ أتانا برفقه الأميرة وله اهتمام خاص من الجميع، طرقت بابه واستأذنت بالدخول، وكما وصفته الأميرة تماماً؛ رغم قسوة نظرته فهو مفعم بأمل لا أدري من أين أتاه.

اسمه "شمس الدين"، مجاهد ضد احتلال آخر على السطح، لربما يكون صغير السن بعض الشيء على أن يكون مجاهداً، لكن كل هذه الجروح تكفي أن تضيف له سناً فوق سنه.

رافقته نحو الخارج، ولكنه رغم برودة المكان يبتسم على كل شيء بفضول، وكأني أصطحب أخ أصغر للعب.

- ما رأيك أن تخلع ما بقدميك وتجرب السير على رمالنا.

ضيق عيناه وهو ينظر لي بريبة، ثم نظر لوهلة تجاه قدميه، وخلع ما يرتديه، حينما لامست قدماه الرمال، لانت ملامحه وأخذ يداعب الرمال بأصابع قدميه، فرت ضحكات خافتة من شفتيه، وفي النهاية أكملنا سيرنا وقد بدى على محياه راحة لم يبدها قبلاً.

أطفالنا يلعبون والسعادة على محياهم، رجالنا يكدون لأجل أحبتهم، ونسائنا مسكن لرجالهن وهم المنزل الدافئ للأطفال، السعادة والدفيء في كل مكان حتى أتانا من هز كياننا.

تنهدم مبانينا الجميلة، وترتعد قلوب الجميع، بكاء الأطفال وصرخات النساء غطت على صوت الخراب، الكبار يركضون لحماية الصغار، والجثث تتساقط وكأن طاعوناً ضرب المكان.

أخذت "شمس الدين" واحتمينا بأحد الجدران، حاجبيه معقودان، وعيناه وكأنما تبحث عن مصدر هذا الخراب، حتى سمعت صوت صغير يستغيث:

-عمي جهاد أنا خائفة.

وقبل أنا أقبل على تلك الصغيرة، كان ذاك المجاهد قد انتفض من مكانه تجاهها، فتقدمت بأرجلها الصغيرة ممسكة بلعبتها بين أحضانها، حتى توقفت تلك الخطوات، وسالت من جانب فمها الدماء، وانهار جسدها الضعيف.

التقطها "شمس الدين" وضمها تجاه صدره ليحميها، وقبل أن يعود لمكانه؛ أصيب بأحد كتفيه وبرغمها لم ينهار، حملها تجاهي وبفزع تكلم:

- أسعفها يا جهاد أسرع.

مسست كفها الصغير برفق، وتحسست نبضها ولكن، قد فارقتها الحياة بالفعل، وجدت وجه رفيقي وقد شحب لونه، رفع رأسه للسماء مغمضاً عيناه، وخرجت من بين شفتيه آهات خافتة.

بعد أن هدأ المكان طلبت من عمى عامر أن يضمد جراح رفيقي، ويصحبه للراحة في غرفته، ومن ثم توجهت لمساعدة البقية، نرفع الحجارة عمن دفن تحت الركام، نسعف المصابين، وجمعنا الموتى لدفنهم، وها هو الملك بيننا يمد يد المساعدة للجميع.

بينما نبحث بين ركام المباني عن المصابين، ظهرت "نور" في أحد الزوايا، بظهر دامي مليء بالجراح، وبين أحضانها طفلين قد دفعت الخطر عنهم، حملت الطفلين عنها وقد تحرك ملكنا للاطمئنان على أميرته، حملها لمداواتها، وأكملت بدوري مساعدة البقية.

.

.

تهدمت المباني الجميلة، تيتم الأطفال، ترملت النساء، وفقد الرجال أحبتهم، الكثير من المصابين والأكثر من الموتى، فقدت الحياة بريقها، كل هذا في لحظات خلفها العدوان الظالم.

ساعدت بقدر استطاعتي وذهبت للاطمئنان على "شمس الدين"، طرقت بابه وما من اجابة، وبعد الاستئذان دلفت إلى غرفته.

في ظلام دامس، وإلى جوار أحد الأركان وجدته وقد ضم ركبتيه إلى صدره، وبيده دمية تلك الطفلة التي رحلت بين زراعيه، سمعت نحيبه وشهقاته، وكأن ذلك الجبل الذي رأيته صباحاً، قد حال لطفل صغير باكٍ.

اقتربت منه لأواسيه، فرفع رأسه تجاهي لأجد عيناه محمرة، وقد اغرورقت ملابسه دموعاً، جسده ينتفض ولا أدري إن كان لشدة البرودة أم من بكائه، حتى حادثني بصوت قد بح:

- أخبرني يا جهاد... ما ذنب الأطفال في هذه الحروب... لم عليهم أن يقتلوا ويصيبهم الأذى... لم لا نستطيع حمايتهم من شرور العالم حتى يكبروا بسلام.

مسحت على كتفيه ولم أجبه، فحتى أنا لا أدري ما ذنبهم، هو فقط ذنبنا نحن، نحن من نقيم الحروب وننهيها، وهم من يدفعون الثمن.

"فقط إن كان بإمكاني حماية الأطفال بين أحضاني حتي تنتهي حروب العالم"

.

.

لا أدري... هل أبكي موطني، أم نفسي وجراحي، أم أبكي هذا الموطن الذي احتواني، احتلال فوق الأرض وعدوان في عمق البحر، إذا أين يأمن الإنسان حياته.

رغم كوني نشأت على مثل هذه المشاهد، إلا أنه لايزال تجزع لها نفسي، ويتمزق لأجلها فؤادي ألماً، قصف للمباني، قتل للرجال والنساء وحتي الأطفال، حرق الأشجار والبشر، عبث يتلوه عبث، فمن يستمع، ومن يبكي، ومن يمد يده لانتشالنا من هذه المأساة.

حتى هنا... أطفال يُتموا، نساء ترملن، ورجال فقدوا أحبتهم، رفاقهم، وعائلاتهم، فأين المفر؟

ها هو "جهاد" يحاول عبثاً أن يواسيني، أوليس هو الأولى بالمواساة، يمكنني أن أرى به رفاقي بالفعل، صامد رغم الشتات من حوله، ومراعٍ للجميع، يمد يده ليساعد حتى وإن كان جسده ينتفض ألماً.

ابتسمت بأسى له، وبادلني نفس الابتسامة المتألمة، فها هو موطنه ينزف.

- جهاد هل بمقدوري فعل شيء ما... أي شيء ربما يمكنني المساعدة.

ربت على كتفي، وأردف:

- وجودك سيساعد لا تقلق... فقط عليك أن ترتاح قليلاً.

هززت رأسي نافياً:

- لا أريد... لن يراودني نوم وأنا هنا وحدي.
- اذا فهذا يوم حظك... إنها ليلة الجمعة.
- وماذا يحدث ليلة الجمعة؟

رفعت أحد حاجباي متسائلاً، ليمسك بيدي ويساندني حتى أقف، ثم أردف:

- ستعرف ما يحدث بعد أن ترافقني.

تبعته لغرفة أخرى طرق بابها، لتخرج إحدى الفتيات يمكنني أن أجزم أنها لم تتخطى الثالثة، بشعر أسود، وعينان سوداوين، وفستان فضي اللون، يمكنني أن أرى الشبه بينها وبين "جهاد" بالفعل، وكأنها نسخة صغرى منه، حملها عاليا وقد شقت الابتسامة وجهه، وضحكات تلك الصغيرة ترتفع وهي تحتضن وجهه بكلتا يديها.

- كيف حال غيثي اليوم... أميرتي وروحي.
- بابا... أنا بكل خير حمد لله.

أخذ يلاعبها حتى خرجت فتاة عشرينية، بشعر مسترسل بني اللون، وثوبها الأبيض اللامع، ومن ورائها "نور" مغطاة بالضمادات ،وبرغم جراحها تمشي بوقار وعلى وجهها ابتسامتها الرقيقة، أقبل "جهاد" على تلك الفتاة ممسكاً كفيها بمودة، وقبل جبينها محدثاً إياها برفق، لابد أنها زوجته، ويالها من أسرة دافئة جميلة، أثارت في داخلي تساؤل.

"لماذا أنا أعزب ولم أتزوج حتى الآن؟"

قطع أفكاري ذاك الصوت الرقيق:

- شمس الدين... هل ستحضر أمسيتنا الليلة.

أومأت رأسي، فصوتها ذاك قد بعثر أفكاري.

- سأفعل... لكن هل أنت بخير مع هذه الجراح؟

- لا بأس لا أشعر بألمها.

أنهت كلماتها بابتسامة، ودخل "جهاد" حاملاً تلك الصغيرة.

- غيثي ألقي التحية على عمك شمس الدين.

وضعت كفها الصغير على رأسي، وتكلمت متلعثمة:

- مرحبا عمي سمس الدين... اسمي غيث.

لطف يكاد يوقف قلبي من حلاوته، "غيث ابنة جهاد" صغيرة كقطعة من الحلوى، أجبتها بابتسامة بعد أن قبلت كفها:

- مرحبا أيتها الحلوة الصغيرة..

خبأت وجهها اللطيف خجلاً في أحضان والدها، في النهاية هي امرأة صغيرة، والنساء يحببن الكلام الحلو.

.

.

بعد أن اطمأن "جهاد" على جراح "نور"، ودعها مع زوجته وطفلته الصغيرة، و اصطحب "شمس الدين" لمكان أوسع، مجموعة من الرجال يوقدون ناراً ويجتمعون حولها، بينما هناك على مسافة منهم توقد النساء نيران أخرى ويجتمعن حولها، يفصل بينهم ستار يخفي النساء عن الرجال، همسات خافتة تصدر منهن، على عكس أصوات الرجال المتعالية.

قد يرى أحدهم الغرابة في هذه المجموعة، شاب من السطح بين مجموعة لهم خياشيم الى جوار آذانهم، ثيابهم وكأنها من حراشف السمك ولكلٍ لون مميز، وجميعهم بلا استثناء حفاة، حتى "شمس الدين" الملتحف بغطاء يمنع عنه البرودة القاتلة؛ قد فقد حذاءه بالفعل، وهاهو يداعب الرمال بأصابعه أمام النار الموقدة.

كبار وشباب وأطفال، يجتمعون كل ليلة جمعة، يتسامرون علهم ينسون مآسيهم، "عامر" طبيب المملكة، "جهاد" وزير الملك المخلص، "شمس الدين" الضيف الآتي من السطح، حدادين، معلمين، عمال، وأطفال صغار، حتى أن الملك يحضر هذه السهرة.

- لنذكر نعم الله علينا هذا الأسبوع لنحمده ونشكره.

رفع الملك صوتها معلناً ابتداء ليلتهم المعتادة:

- خسرت أخي وطفلي... لكن الله قد حفظ لي أمي... كما ولا أزال على قد الحياة.

ابتدأ أحد الرجال، وتلاه آخر، كبار وشباب يشاركون همومهم، ويذكرون النعم التي حلت عليهم؛ علها تخفف عنهم وطأة حزنهم.

- ماذا عنك يارفيق.

أشار أحدهم لشمس الدين، ليفكر لوهلة ثم يجيب:

- انفجرت بي طائرة وكدت أموت غرقاً... لكن الله وضعني في طريق الأميرة لتنقذني... وها أنا الآن حي أُرزق.

ارتفعت الأصوات بالدعاء بالرحمة لموتاهم، وبالحفظ لأحبتهم، ومباركات على النجاة يوماً آخر، ومن ثم نطق جهاد بكلماته:

- علينا أن نسلم لقضاء الله ... فإن أخذ من أحبتنا، فهذا عدله، وفي المقابل أعطانا الكثير ... وإن أبقاهم لنا فهذه رحمته بقلوبنا ... فإن عاملنا الله بعدله؛ فلنصبر ... وإن عاملنا برحمته؛ فلنشكر.

ارتفعت الأصوات بالحمد، جبال صامدون رغم الجروح، متكاتفين كبنيان واحد، هم أحرار وان كانوا خلف مئات القضبان، منتصرين وان ماتوا جميعاً.

استأذن الملك بالرحيل، وأخذ الكبار يلاعبون الصغار حتى غفو، ثم اجتمعوا الى جوار بعضهم، يحتض الأخ أخيه، ويحتضن الأب ابنه، في ليلة جمعت قلوبهم وأجسادهم معاً.

غط "شمس الدين" في نوم عميق وإلى جواره "جهاد"، ولكن يبدو وكأن أحدهم لن يحصل على نوم هانئ لهذه الليلة.

- عمي سمس الدين... استيقظ.

فتح عيناه على تلك اللطيفة الصغيرة "غيث"، وقد أدرك لتوه أنه محتضن لزراع "جهاد" وقد اتخذ من بطنه وسادة له، فتحرك سريعاً واعتدل في جلوسه.

- صباح الخير يا غيثنا الحلو...

- من حظك أنك تصحو على صوت أميرتي... لكن ذكرني في المرة المقبلة ألا أنام إلى جوارك.

أنهى كلماته واحتضن صغيرته وكأنه يختبئ بين ثناياها، بينما أخذت "غيث" ترتب شعر أبيها المبعثر بيديها الصغيرتان، وتقبل وجهه بحنان آسر.

حدق "شمس الدين" بهما بحب، ومن ثم لوى شفتيه، وعقد حاجبيه، كطفل صغير يسترجي أحدهم.

- أنا أيضاً أريد زوجة وطفلة صغيرة تدللني.

.

.

صباح يوم الجمعة، وقد استيقظت على وضع لا أحسد عليه، لكنه يدل على تمكني من أداء جزء مما نطمح إليه، فها هو الرجل الذي أتانا من السطح؛ قد بات كواحد منا، وأسلوب نومه هذا هو ما يثبت صحة كلامي.

أتتني صغيرتي "غيث"، طفلتي التي أطمح بأن أعطيها كل ما يسعدها، حتى تصبح شخص يفخر به الجميع، عساها تصبح طفلة صالحة، لربما كزوجتي الحبيبة، فخر حياتي، وطبيبة لنساء مملكتنا، حتى في الإجازات فهي لا تكل ولا تمل من مساعدة الجميع، وعسى طفلتي تصبح يوماً مثلها، فخر لي ولأمها ولمملكتنا.

توقظني بقبلة على جبيني، كما تفعل زوجتي معها، وبكفها الصغير تمسح على رأسي.

- بابا... صباحك خير.

أمسكت بكفها الرقيق وقبلته، وأجبتها بكل السعادة من قلبي:

- صباحك سعادة وخير يا غيثي... أميرتي وروحي... ما رأيك أن توقظي عمك شمس الدين.

رأيتها وهي تمسح رأس رفيقي، وتحاول ايقاظه من سباته:

- عمي سمس الدين... استيقظ.

تحرك من مكانه، وأخيراً ترك زراعي، وتحررت معدتي من ضغط رأسه، لأحتضن أن صغيرتي، وبكفها الصغير ترتب لي شعري المبعثر، لأوجه كلماتي لرفيقي.

- من حظك أن تستيقظ على صوت أميرتي... لكن ذكرني في المرة المقبلة ألا أنام إلى جوارك.

لوى شفتيه، وقد عقد حاجبيه، وأجابني كمن يسترجي شيء ما:

- أنا أيضاً أريد زوجة وطفلة لتدللني.

كتمت ضحكاتي، وتظاهرت بالجدية:

- ما رأيك اذا أن نطلب من خالتي تسبيح أن تجد لك عروس مناسبة... لكن عليك أن تكون رجلاً قويم يتحمل المسؤولية.

- وهل ترضى إحداهن على الزواج مني... وأنا غريب لا ينتمي لهنا.

- ان نساءنا صالحات يا رفيقي... سكن لأزواجهن، وخير معين... وانت لا يعيبك شيء... سنجد لك عملاً... وارى ان أخلاقك لا يشوبها شيء... توكل على الله والزوجة ستأتي برزقها.

- ونعم بالله... دعني أجد عملاً أكون نافعاً به أولاً لأرد جميلكم... وسيرزقني الله بزوجة حين يحين وقتها.

حسناً... أظنني أريد زواجه منا، لربما يبقى معنا.
حينما استيقظ الجميع، كانت النساء قد صنعن الطعام، وقام بعض الرجال بتوزيعه علينا.

اجتمعنا على طعام واحد، وكالعادة يشاركنا الملك كفرد منا، النساء والفتيات في جانب، والرجال والصبية في جانب اخر، نتشارك طعامنا، همومنا، وسعادتنا.

بعد ان انهينا الطعام، جلسنا سوياً في صفوف، الرجال في المقدمة، والنساء في الخلف، وها هو ملكنا أمام الجموع، يخطب بنا كعادة كل يوم جمعة، ساوينا صفوفنا، ووقفنا للصلاة وأنا إمامهم.

أنهينا صلاتنا، وانصرف كل فرد الى أحبته، الرفاق، العائلات والأزواج، كل ذهب لمن يهب له أملاً في الحياة.
نلاعب أطفالنا، نأنس بآبائنا، نسكن لأزواجنا، بيوم من أيام أسبوعنا الحافل، نأخذ راحة من الحياة، لنكمل كدحاً باقي الأيام.

- بابا... رداء عمي سمس.
- بالطبع أميرتي لنذهب.

أخذت صغيرتي لإحضار رداء "شمس الدين"، فبرد المكان هنا يجعل أطرافه تكاد تتجمد، كما ويمكنني سماع صرير أسنانه بالفعل.

- عمي سمس... تفضل.

ناولته طفلتي، وعلى محياها ابتسامة واسعة.

- ما هذا يا غيثنا.
- رداء قد أوصيت بصناعته لك... البرودة هنا مهلكة... وأنت من اعتدت دفئ الشمس.

سارع بارتدائه، وما أن غطاه حتى باتت أطرافه دافئة.

- جُزيت كل الخير يا جهاد... لا تدري كم كنت أتجمد هاهنا.
- يسعدني أنه قد نال استحسانك.
- أحببته بالطبع... من لا يحب الدفيء.

احتضنت "غيث" قدمه، ورفعت رأسها تجاهه.

- عمي سمس... تعال معنا.

حملها عاليا على كتفيه، وأجابها بمودة تليق بطفلتي:

- إلى أين يا غيثنا الحلو.

أشارت بأصابعها لخارج المكان، وتمسكت برأسه:

- تعال معي أنا وبابا... نحضر الأزهار لماما.
- لآتي أنا.

تحركنا لحديقة خالتي "تسبيح"، فهي تعتني دائماً بالزهرات، وما من زهرة عندها إلا ولها صاحبها.

أزهار بيضاء، وأخرى حمراء، والألوان الزاهية تغطي المكان، ورائحة عطرة تغطي المكان كعادته، وهناك في نهاية الحديقة كراسٍ لفتيات في عمر الزهور، وتجلس بينهن خالتي، وما أن رأتنا حتي استقبلتنا بالترحاب، وأقبلت عليها طفلتي.

- خالتي... كيف حالكِ.

- طالما زهرتي الصغيرة بخير، فأنا بكل خير... نفس الطلب من جديد.

- أتيد زهرة حمراء... لماما حبيبة بابا.

أحضرت لنا باقة حمراء بديعة الجمال، لحبيبتي وزوجتي، ولطفلتي أحضرت زهرة بيضاء كحال قلبها النقي الجميل.

هذا هو موطني، برجاله، نسائه، وأطفاله، بأزهاره وأيامه، هو موطني، ولأكن فداء له.

.

.

أخذ "جهاد" باقة الأزهار الحمراء لزوجته، ومن وراءه "شمس الدين" يحمل على كتفيه "غيث" الصغيرة، تهز قدميها في سعادة، وتعبث بشعر حاملها، وبصوتها الرقيق تغني:

ابتسم... فهذا الحزن حتماً ينجلي.

ابتسم... و لليأس لا لا تنحني.

ابتسم... فالفجر حتما آتى.

ابتسم... ومن الأحلام فلترتوي.

ابتسم... فالأمل لا لن ينتهى.

طرق جهاد باب عيادة زوجته، ودقائق حتى أتاه الرد، وقام بدفع باقته الى وجهها، وأردف بكل حب:

- اشتقت لكِ يا طبيبة فؤادي... أما آن الأوان لتداويني.

أجابته بمشاكسة، وقد ابتسم ثغرها:

- يا وزيرنا المجتهد... أما من عمل لديك.
- اليوم يوم عطلتي... ووددت لو تشفقي عليّ وتعطيني بعض من وقتكِ.

تنهدت واستندت برأسها على صدره، وهمست له:

- تدرك أني أشتاق لك أوليس كذلك... لكن لا يمكنني ترك مرضاي وأرحل.

حاوطها بزراعيه بحنان، ومسح على رأسها.

- أثق أنكِ لن تتركي أحداً ورائكِ... يكفيني فخراً أن تداوي جراحنا حبيبتي.
- شكراً لأنك تتحملني... لكنه عملي... وقلبي لا يطاوعني أن أراهم يستنجدون بي ولا أجيب...
- جُزيتي كل الخير على عملك... لا بأس على قلبكِ حبيبتي... لا بأس.

طال الهمس بينهم لدقائق، وعلى مسافة منهم يقف "شمس الدين" برفقة طفلتهم، وبعدها ناداها والدها، لتركض على أحضانهما.

- ماما... أرأيت زهرتي.

احتضنتها والدتها بحنان وشوق، فعملها كطبيبة وسط العدوان يجبرها على وضع لا تهواه.

- رأيتها يا عيون أمكِ... كيف كان حالكِ... هل رعاكِ أبوك كما يجب.

- بابا يلعب معي ويحضر لي كل ما أحب.

- لتسعدي دوماً طفلتي... ما رأيكِ أن نلعب معاً اليوم... لم يعد لدي عمل الآن.

قفزت الطفلة مرحاً واحتضنت امها، واحتضنهما "جهاد" سوياً.

بعد دقائق خرجت "نور" من العيادة، ليستوقفها قبل رحيلها.

- نور من فضلكِ... اليوم عطلتي...

أمالت نور برأسها مستفهمة وأردفت:

- اليوم يوم جمعة يا جهاد... عطلة للجميع تقريباً.

احتضن طفلته، ولوى شفتيه، فهزت "نور" رأسها بقلة حيلة، وأكملت:

- تكلم جهاد ماذا تريد.

- هل يمكنكِ أن ترافقي شمس الدين... لليوم فقط من فضلك.

أومأت برأسها، وأردفت:

- استمتع بعطلتك أيها الوزير.

رفع صوته عالياً ليسمعها بعد أن ابتعدت عنه:

- سأفعل يا أميرتنا.

.

.

لا أظن أن اليوم قد يصبح أكثر ارهاق من هذا، لكن لا بأس، مادام "جهاد" قد أمنه على ابنته فلابد أنه شخص جيد بما يكفي، لكن هل بمقدوري أن آمنه على مملكتي، وشعبي.

اقتربت منه لأجده قد اشتدت عن قبل، الدفيء بادٍ على محياه، ويبدو وكأن جراحه تتماثل بالشفاء.

- مرحباً يا أميرة... كيف حالكِ الآن.
- مادام موطني ينزف فأنا لست بخير... وفقط نادني نور... نحن لا نحبذ الالقاب في المملكة.

تراجع خطوة وتردد:
- لكنكِ الأميرة هنا... بينما أنا متطفل غريب على المملكة.
- طالما أكلت من طعامنا... ووقفت في صفوفنا... اجتمعت مع رجالنا... فأنت فرد منا... سنحميك كما نفعل مع شعبنا... وسنعمل على اعادتك لموطنك متى ما أردت... وأيضاً إن أردت البقاء، سنجد لك عملاً تكسب عيشك منه... وزوجة تؤنسك وتعينك على الحياة هنا.

صمت لبرهة يفكر، من حقه؛ فأي مكان قد يوفر له شيء كهذا، وهو الغريب البعيد عن موطنه.

- فقط افعل ما يريحك... واعلم دائماً أننا نرحب بك.

اومأ برأسه، وتكلم:
- يسعدني وجودي بينكم... وسأكون ممتناً لكِ دائماً لإنقاذي.

- اذاً هلا رافقتني اليوم.
- يسعدني ذلك.

رافقته في أرجاء المملكة، ويمكنني بالفعل رؤية الانبهار والحيرة في عينيه، هل ربما يختلف موطني كثيراً عن موطنه.

- شمس الدين... حدثني عن موطنك.

لمعت عيناه، وحدثني بحنين وشوق ظاهرين.

- موطني مكان بديع طاهر... له سماء يمكنها أن تحتضنكِ، وأرض تحملكِ رغم همومكِ، ومن قلبها يخرج أطيب الخير، أما عن شعبه الطيب الصامد فلا كلام يكفيه، رجال صامدون كالجبال، نساء عفيفات صالحات، حتى أطفاله فهم أسود لا يخشون ظالم.

صمت لوهلة ثم أكمل:

- لكن رغم جماله... فهو محتل دامٍ... يقتل فيه الصغار والكبار، نساء ورجال... الطبيب يُقتل وهو يداوي المصابين... والمعلم يُقتل مع طلابه... الإخوة والعائلات والرفاق يقتلون سوياً...

تنهد وأردف:

- لكننا لن نترك لهم ديارنا... قد آويناهم حينما شردوا... واستقبلناهم حينما رفضهم العالم، لكنهم طمعوا بما ليس لهم... وقد طفح بنا الكيل ولن نغفر لهم... موطني سيتحرر، وحتماً سننتصر.

سننتصر، أرجو حقاً أن نتحرر، أن يكف علينا العدوان، أن يحيا الصغار طفولتهم، وأن يسعد الجميع، لن أكف عن دعواتي، وأرجو أن أرى هذا اليوم.

- يوماً ما سنقول قد عدنا أحراراً.

.

.

صرخات النساء، بكاء الأطفال، ونيران تلتهم المكان، يهلع القادر للنجدة، والبقية ينتظرون من ينجدهم، طلقات تصيب الجميع، كباراً وصغار، نساء ورجال، وما من ناجٍ.

.

.

في صباح يوم جديد، البعض ينعي قتلاه، والآخر يحمد الله على نجاته، ولا أحد مدرك لما سيحل بهم.

استودع الجميع بعضهم وانطلقوا لإحضار قوت يومهم، حينما تُرى ضحكات الأطفال وهم يلعبون، وابتسامات الكبار لبعضهم، همسات النساء، ونداء شباب، وكأن الحياة لا يمسها سوء.

على حين غرة اندلع انفجار بالقرب من مسكن الملك، هم الجميع لإطفاء النيران المشتعلة، وهم الأطباء لإنجاد المصابين، ولكن لم يتوقف الأمر عند هذا الحد.

ارتفع صوت الانفجارات في المملكة، كُلٌ ينعي همه، الآباء يحمون صغارهم، والرجال يحمون أحبتهم، ولم يسلم أحد.

مباني تتساقط على أصحابها، صرخات تنطفئ على حين غرة، وأجساد تتساقط في كل صوب، الدماء ملئت الشوارع، وبكاء الأطفال يتوقف إثر قتلهم، مشهد تقشعر له الأبدان، وتنفطر له القلوب، قهر على قهر ، ظُلم وبأس يعتريهم، فأين المنجد، وأين المفر.

.

حينما هدأت الصراعات، اجتمعوا لإطفاء النيران، جمع الجثث وانقاذ المصابين، انطلق "جهاد" في صوب، و"شمس الدين" في صوب آخر، تستنجد النساء أن "أنقذوا أطفالي"، ويبكي الأطفال "أين أبي".

فأخبروني من لديه الجواب؟

.

- من فضلك أخي... أنجد أطفالي... لازالوا أحياء...

استنجدت ب"شمس الدين" إحداهن، الهلع على محياها كما الجميع، واختلطت دموعها بكلماتها المتلعثمة وأنفاسها اللاهثة.

- لبيكِ يا أختاه.

جاوبها وهب لحيث طلبته، وبيديه العاريتين أخذ يرفع الحجارة والركام عن الأطفال، يمكنه سماع نحيبهم، ورغم الدماء التي تسيل من كفيه إلا أنه لايزال يحاول.

مرت عدة ساعات وهم يرفعون الركام، صوت الأطفال خافت لكنهم اقتربوا، حتى رفع آخر حجر يفصلهم، ومعه تنشق القلوب حسرة.

رفع الأطفال من أحضان إحداهن، وقد شج رأسها وسالت منه الدماء، وقد لُوث رداءها الأبيض النقي بالدماء، فقدت حياتها لتفديهم بها، حتى وان تركت خلفاء من سيبكيها دماً.

اختنقت عيناه بالدموع، فهو يعرف من صاحبة هذا الرداء الطاهر، ويعرف تمام المعرفة من سيبكي لرحيلها.

حملها خارج الركام وقد طلب من أحدهم أن ينادي "جهاد"، كان الحريق قد خمد، لكن من يخمد النار القابعة في تلك القلوب.

أقبل في حيرة ليقف على ذاك الجسد الممدد، قد عرفها من أول وهلة، فتلك حبيبته وشريكة عمره، يعرف كل تفاصيلها، ملامحها شعرها، ولن يخطئها قلبه.

خوت قواه وسقط جوارها، أخذ رأسها على قدميه، يتحسس وجهها بأنامله، ويمسح عنها دمها، يناديها بحسرة وألم، رفيقة الروح قد فارقته:

- حبيبتي... زوجتي... رفيقة دربي... ألم نتعاهد على السير معاً، فما بالكِ تركتني... من يداوينا الآن... ومن يداويكِ يا دواء روحي.

من بعيد صوت خافت يناديه، طفلته وما بقي من روحه، نظر لها بكل حسرة، من يعينه الآن ليرفع ابنته عالياً، من يقتسم تربيتها معه، وللآن كيف يخبر طفلته أن أمها قد قتلت على يد العدوان الظالم.

حملها "شمس الدين" بين زراعيه، وغطى وجهها عن رؤية جسد أمها، ونظر بيأس إلى رفيقه الضائع بأفكاره، كيف يتركها ترى أمانها دون مأمن، وكيف يبعدها دون أن ترى حنانها لآخر مرة.

- عمي سمس... من فضلك أريد بابا.

مد "جهاد" يده تجاه طفلته بحسرة، فتركها لتندفع "غيث" تلك الصغيرة التي فقدت لتوها أمها، وهاهو والدها هائم في يأسه، ارتمت في أحضانه، حتى هدأت أنفاسها ونبضات قلبها المضطربة.

جثت على ركبتيها أمام وجه أمها الحبيبة، وبأناملها الصغيرة تمسح الدماء عن وجهها، تتأملها بملامح حيرت الكبار، أي طفلة ترى الدماء ولازالت ثابتة، أي طفلة ترى والدتها جثة هامدة ولم تهتز.

- ماما نامت.

ألقت بكلمتها التي شقت قلوب الجميع، ونظرت لوجه والدها الحائر، ليهز رأسه نافياً وبالكاد كبح دموعه عن النزول.

- ارتاحي ماما... حتى نلقاكِ.

قالت كلماتها وقبلت جبين والدتها، ومن ثم وقفت واحتضنت والدها، وبكفها الصغير تمسح على قلبه، بصمت ودون اهتزاز، أي ثبات لطفلة لم تتجاوز الثالثة.

احتضنها "جهاد" وانطلقت آهات هامسة من شفتيه، رفع رأسه للسماء مستنجداً، وتحررت الدموع من عيناه، وهمس:

"يا رب"

.

.

حُملت الجثث ليتم دفنها، ووقف جهاد أمام زوجته للمرة الأخيرة، يلقى على مسامعها كلمات الوداع، وإن كان وداع مؤقت لحين يلتقيان في جنة الرحمن.

- حبيبة الفؤاد... رفيقة الروح... زوجتي الحنون... لأستودعكِ من لا تضيع عنده الودائع... حتى يحين لقيانا... سأعتني بطفلتنا... وسأدعو لكِ دوماً... لن أنسى أيامنا سوياً... وحتى يحين موعد لقيانا... من فضلكِ انتظريني... يا دواء روحي وحبيبتي.

.

.

في غرفة مظلمة تقبع تلك الصغيرة، منكمشة على نفسها، تداوي جروحها في حين لا يراها أحد، طرق على الباب ومن خلفه نداء ذاك الضيف.

- غيثنا... هل تسمحين لي بالدخول.

لم يصله صوتها الضعيف، ليدخل قلقاً على ابنة رفيقه:

- غيثنا... أين أنتِ يا أميرتنا؟

- أنا هنا عمي سمس... تفضل.

جلس الى جوارها وأخذ يمسح على رأسها، ينظر لها بشفقة، اي قلب تحمل تلك الصغيرة.

- يا غيثنا... هل أنتِ بخير؟

امتلئت عيناها بالدموع، وتلعثمت الكلمات على لسانها، اضطربت أنفاسها، وأشارت بيدها على قلبها الصغير.

- أنا لست بخير... هنا يؤلمني... أعرف ان ماما لن تفتح عيناها من جديد... أنا طفلة لكني أفهم ماذا يعني أن ماما رحلت عني.

اختلطت دموعها بكلماتها، علت أنفاسها، وجسدها الضعيف ينتفض، فاحتضنها "شمس الدين" وأخذ يربت على ظهرها.

- لا بأس عليكِ غيثنا... لا بأس.

- لكني حزينة عمي سمس... أنا أحب ماما ولا أريد أن ترحل... وبابا يحب ماما... هل بابا يتألم أيضاً.

انهارت دموعه، فبماذا يواسي تلك الطفلة، وذنبها الوحيد أن وطنها ينزف.

- عمي سمس... أنا لست بخير.

.

.

يمشي متخبطاً بين الطرقات، هائماً لا يدرك وجهة، من يداويه وقد فقد دوائه، ومن يرافقه في رحلة حياته؛ ورفيقة روحه قد رحلت عنه، أمام باب غرفة ابنته يقف حائراً، بماذا قد يجيبها، وكيف يصمد وهو يرى حبيبته في وجه طفلته.

طرق الباب برفق، ودخل منادياً صغيرته بهمس:

- غيثي... قد أتيتكِ.

لم يسمع رداً، لكنه رأى ذاك الضيف الذي يحاول استمالته وطفلته نائمة على قدميه، يمسح على رأسها برفق، وقد حفرت الدموع مسارها على وجهه.

- شمس الدين... ماذا تفعل هنا.

نظر له بشفقة، وأجابه هامساً:

- لم أرغب في النوم فأتيت للعب مع غيث.

هز "جهاد" رأسه وجلس الى جوار رفيقه، حمل ابنته بين زراعيه، يقبل وجهها، ويضمها إليه، طفلته التي نامت من شدة بكائها، يبكيها قلبه شفقة ورحمة، تنهد بألم، وتكلم بصوت مهزوز:

- لم أكن لأتصور أن قلبي سيؤلمني لهذا الحد... قد كانت تتمني دوماً ألا يكون موتها دون مقابل... وها قد تحققت مطالبها ورحلت في سبيل حماية الأطفال.

مسح "شمس الدين" على كتفيه، لا يملك كلمات ليواسيه، ولا شيء غير الدعاء.

- فقط ماذا عني... قد تعاهدنا على السير معاً... ولم يخلف أحد منذ زواجنا... لكنها تركتني الآن... وتركت معي جزيء منها.

ابتلع غصة في قلبه، وترك العنان لدموعه بالنزول، دون حيلة تركته، يكمل مسيره وحيداً.

- حتى ترضى... خذ من أموالنا... أحبتنا... أنفسنا... وأبنائنا حتى ترضى يا رب.

زفر مرسلاً همومه للسماء، فمن غير خالقه يسمع مناجاته.

لحظات من الصمت القاتل، يقطعها صوت طرقات عالية على بابه، وكأنه انذار لمصيبة حلت، قام عليها "جهاد" ليجيب، ومن خلف الباب ذاك الفزع، بأنفاس لاهثة يستنجد به:

- جهاد... نور... لا أثر لها.

نحو مجلس الملك انطلقنا، بعد أن أوكل إحداهن برعاية ابنته، وما أن دخل "جهاد" القاعة حتى تراجعت فلا مكان لي هنا، ولكنه قد أمسك بيدي، وأومأ.

- نحتاجك معنا... لا تتراجع.

دخلنا سوياً، والقاعة ممتلئة بأصناف لم أتوقعها، العم عامر، خالة تسبيح، مستشارين، رجل مقنع يقف في صمت، ويترأسهم الملك.

- أين اختفت نور... ليحفظها ربي.

تكلمت "خالة تسبيح" بقلق، ليجيبها "جهاد":

- سنجدها حتما يا خالتي... فقط منذ متى قد اختفت.

تعالت الأصوات، والملك يستمع ويجيب برزانة، ولا حل قد طرح حتى الآن.

- هل يمكن أن تكون قد اختطفت.

صمت الجميع وتوجهت الأنظار تجاهي، وتكلم الملك:

- ولماذا تظن ذاك.

- لربما يكون حريق الصباح مجرد غطاء لاختطافها.

أطرق ذاك الملثم وتقدم تجاهي، بمظهره الواثق، ووجهه الذي لا يظهر منه سوى عيناه، كمجاهدينا، بثقة الجبال الثابتة، وبصوت جهور تكلم.

- أيها المجاهد شمس الدين... انضم لنا.

يمكنني القول أني لم أتوقع ذلك البتة، حتى وان اعتبروني فرد منهم، فهل يأمنوني على موطنهم، نظرت لرفيقي، لأراه يومئ لي بثقة، فأجبته:

- طالما أنا معكم سأبذل قصارى جهدي لرد معروفكم... وسأسعى جاهداً لرد أميرتكم لموطنها.

- وهذا ما نبتغيه... وحتى نُؤمّن لك طريق الرجوع لموطنك... نأمل أن تبقى كفرد منا.

أومأت له، وأدرك تماماً أني مقبل على سداد ديني، وبينما نتشاور فيما قد نفعله، وتتوزع الأدوار علينا، حتى دخل أحد الحراس علينا:

- يا ملكنا... هناك رسول من مملكة أكوديا... بماذا تأمر.

نظر الجميع تجاه بعضهم، وقد أدركنا من مُختطف الأميرة، حتى طلب الملك دخوله.

دخل علينا أحدهم، كما أفراد مملكة إلكدونيا، ولكن لديه ملامح قاسية، وثوبه بلون أزرق، فور أن رأيته ووقعت أنظاره علي؛ حتى شعرت وكأن قلبي قد انقبض، رؤيته غير مريحة البتة، لاسيما حينما تحدث بصوت قاسٍ كملامحه:

- ملك إلكدونيا... لابد أنك أدركت اختفاء أميرتك الحبيبة... هي أسيرتنا الآن... وإن لم ترغب بموتها، اخضع لنا...

هاج الحشد ومنهم من هب عليه لقتله، لكن حراسنا قد منعوهم، ورأيت ذاك الملثم يقبض على يديه في غضب، حتى أكمل ذاك الوغد:

- سلمنا المملكة... وسنضمن لك سلامة أفردها... ونرد لك أميرتك... وإلا فهي الحرب، ولن يسلم أحد من بطشنا.

أنهى كلماته ورحل، والآن باتت المملكة في وضع لا تحسد عليه، من أين يضمن سلامة المملكة وأفرادها، وكيف ترد نور الى أرضها.

- وكأنهم ليسوا سبباً في موت أحبتنا... هي الحرب حتماً ولا مفر.

تكلم جهاد بغضب، ليجيبه ذاك الملثم:

- هي حرب بالفعل يا جهاد... لكن لندرك اولاً كيف تكون لنا اليد العليا عليهم... لدينا أسرى منهم بالفعل، ولكن هل هم بنفس أهمية نور لنا... وهل سنتمكن من جمع عتاد وغذاء كافٍ لننتصر في الحرب.

- ألا توجد ممالك أخرى حليفة لنا هنا.

حادثته علنا نصل لحل، فهم سبب العدوان على شعب هذه المملكة، والآن يضغطون عليهم بأميرتهم.

- يوجد عدة ممالك بالفعل... وعسانا نجد من يعيننا على هذه الحرب.

أجابني جهاد وهو يعد من قد يساعدنا.

- اذا دعونا نرسل في طلب اعانة منهم... ودعونا نحصي عتادنا ونبحث عما يجعلنا نتفوق علهم.

أنهيت كلماتي، وقد وافق الملك على استشاراتنا، وبدأ التحرك بالفعل، كلٌ بمهمته، لبدء حرب لا يُعرف من المنتصر فيها.

"لكن طالما نقف في طريق الحق فان النصر من الله آتٍ لا محالة".

.

"ان كنت تقاتل الى جوار رفقة تثق بهم، فما أنت بخاسر أبداً".

رافقت "جهاد" مع بعض الرسل الى خارج المملكة، حسنا أنا فقط من لم أخرج، وقد ذُهلت حينما رأيت أقدامهم تتحول إلى زيل بديع الجمال، الآن فقط فهمت لماذا لا يرتدون أحذية.
وبعد أن أرسل كلَ لوجهته، عاد إلي.

- الآن إلى تميم.

أملت رأسي متسائلاً:

- من تميم؟

- الشخص الذي قد وافقت على الانضمام إليه.

ضحك بخفة عليّ، لا ألومه فمن ينضم لأحدهم دون معرفة من يكون.

كان "تميم" في انتظارنا خارج مسكن الملك، وبعد أن تقابلنا ونحن ندخل من أبواب ونخرج من أخرى، وكأنها متاهة لا يعرفها سوى صاحبها، وفي النهاية قاعة ضخمة، منسقة رغم زحامها، والعديد من الرجال كصاحبنا "تميم"، لا يظهر منهم سوى أعينهم.

- نعونا نرحب بمجاهد آخر بيننا... رفيق يعيننا ونعينه.

استقبلت الترحاب من الجميع، وكأنها تحية يلقونها فيما بينهم، يقبضون على أيدي بعضهم، ويصدمون أكتافهم ببعضها.

بدأنا نعد العتاد، لكنه عبارة عن سيوف قاطعة، أسهم، ورماح، كل فرد يحمل سيفه على خصره، والبعض يحمل رمح، أو قوس وسهام، يذكرني هذا بحكايات وحروب الماضي، قبل اختراع الأسلحة النارية، تلك اللعنة التي حلت على الكوكب.

- ألا يوجد هنا بارود يمكن استخدامه؟

طرحت سؤالاً أثار انتباه الجميع، وإن كانوا يعرفون البارود فما حاجتهم للسيوف والرماح.

- وما البارود يا رفيقي.

تساءل "تميم"، وأطرق رفيقي "جهاد" سمعه باهتمام، فأجبتهم، علّنا نجد شيء يرجع كفتنا للفوز.

- البارود هو شيء أشبه بالتراب يمكنها أن تشتعل... ويمكن استخدامها لصنع الأسلحة.

- لا أدري ان كان ما تقصده هو الآكار أم غيره... لكننا نستخدمه للإشعال.

- اذا أحضره لي... لربما نستطيع استخدامه.

طُلب من أحدهم إحضاره، ليخرج لي برميل من سائل ذو قوام ثقل كالعسل، وبنفس لونه أيضاً، وقام تميم بإشعال بعض الأعواد باستخدامها، ليظهر لهب أزرق اللون شديد الحرارة والاشتعال، ربما لديه قوة تفوق قوة البارود بالفعل.

- ربما نستطيع.

ألقيت بكلمتي ليبتهج الجميع، فقد ظهر لهيب أمل ينير لنا طريق للنصر.

.

.

بدأ المجاهدون بجمع كل الآكار من المملكة، بالطبع فيما عدا أقل القليل لدى طاهي الطعام، وفي تلك الغرفة البعيدة عن الأنظار، يجتمع "تميم" قائد المجاهدين، "جهاد" وزير المملكة، "شمس الدين" الأمل الذي أتاهم من السطح، مع بعض عباقرة للمملكة، يصف شمس الدين فكرة يمكنهم تطويرها واستخدام "الآكار" بها.

- لربما نتمكن من صنع دانة... هي عبارة عن شيء يفوق القنابل صنعاً وفتكاً... وبسبب وزن الآكار الخفيف سيسهل استخدامه.

- وهل هذه الأسلحة موجودة بالفعل عندكم؟

أومأ "شمس الدين" مجيباً على سؤال "جهاد"، فتلك الأفكار المخيفة موجودة بالفعل، ويوجد ما هو أسوأ، ليتساءل "تميم":

- وما تأثير تلك الدانة؟

- من المفترض أن يكون مجرد انفجار... لكن يمكننا اضافة المزيد بعد... يمكن حشو الدانة بقنابل أصغر حجماً مزودة بإبر مسممة... فور أن تنفجر الدانة الكبرى وتصيب ما يمكن اصابته... تخرج تلك القنابل الصغيرة لتفجر حولها المكان ويسمم ما يصاب بإبرها.

أجابه وقلبه ينتفض، لا يحب الفكرة لكنها أملهم، فمملكة "أكوديا" لديها بالفعل قنابل، وأسلحة عن بعد ليست بسهام ولا سيوف، وتلك الدانة ستكون أملهم الأخير.

- دعنا نبدأ بصنعها.

- لكني سأكون بحاجة الجميع... وبحاجة كل الحديد في المملكة.

رد "شمس الدين" ليجيبه "تميم" مطمئناً:

- لك ذلك... ستكون معيناً لنا... وسنمدك بكل ما قد تحتاجه.

.

بدأنا العمل على تلك الكارثة، بعد أن أعلن "تميم" للمملكة أنه بحاجة للحديد، وبتفويض من الملك بالفعل، بدأ الجميع من كل صوب بإحضار ما يملك، أطباق، بوابات، سكاكين، كراسٍ، وحتى عرباتهم، لم يبخل أحد بشيء على موطنه، وكلهم يفديه بروحه.

سكوت عم المكان حينما دخل أحدهم لندائي، يبدوا وكأن الرسل قد عادوا، تركت العمل للبقية وتوجهت للمجلس حيث يوجدون، لكن لما وجوه الجميع مقفهرة.

- جهاد... لنا الله.

قطع أفكاري صوت أحد الرسل، وبعد أن فهمت المراد؛ أدركت أننا وحدنا، كل الممالك لن تساعد، وسنواجه مملكة أكوديا منفردين.

لا أدري ماذا عساي أخبر البقية، أنهم تركوا وتُخلي عنهم، أم أن عليهم الوقوف حتى آخر نفس؛ وإن وقف الجميع مشاهدين لربما يشعر أحدهم بالشفقة عليهم ويساعد، فقط أين ما عاهدونا عليه، أين الرفاق!

.

اعمل بالأسباب وتوكل على الخالق، فلا مغيث إلاه.

حمل "جهاد" الأخبار في قلبه، وبالكاد عرف أحد ان الممالك تخلت عنهم، وتوجه لحيث يعمل "تميم" و "شمس الدين" ومن معهم، الجميع يعمل بجد، رجالا ونساء، يصهر الحديد ويطرق، يبدأون بجمع القطع معاً، رغم كونها كارثة إلا أنها أخر آمالهم الآن.

.

.

- عمي سمس... ماذا تفعل؟

بفضول طفلة صغيرة تتطفل "غيث" على عمل المجاهدين، ولكن هل لصغيرة أن تعرف ما تلك الكارثة، ليجاوبها "شمس الدين" برفق:

- نصنع شيء كبيراً ليساعدنا.

- وماذا يفعل؟

تضع رأسها على كتفه، وهو يفترش الأرض أثناء عمله، ليربت على رأسها، ويبعثر لها خصلات شعرها الأسود.

- يفعل أشياء ليست جيدة... خطيرة.

لوت شفتيها، عقدت حاجبيها، وأخذت تفكر، فرغم كونها طفلة؛ إلا أن العدوان أضاف للجميع سن فوق سن:

- خطيرة... هل تجرحنا؟

بالفعل، فتلك الكارثة إن لم تحفظ بعيداً عن تلك الأيدي الملطخة بالدماء؛ فستراق على تباعها المزيد والمزيد منه.

- سنحاول أن تكون سبباً في نجاتنا.

هزت رأسها يمنة ويسرة، وذهبت لتعبث مع المجهدين الآخرين، الجميع يداعبها، ويربت على رأسها، وبدورها تسير بين الجميع، وكأنها تنشر طاقة من المحبة في الأجواء، وبرغم التوتر، إلا أنها تضفي دفء على المكان، طمأنينة ربما، فالأطفال هم أمل المستقبل، ولأجلهم نسعى أن يكون موطنهم آمن.

تمر الأيام، وقد أتموا بالفعل صنع المدفع الخاص بالدانة، وبدأوا بصنع القنابل الصغيرة، وتركيب الدانة، حتى وان كانوا يخشون من توابع ما يفعلون، فحتى النهاية لن ييأسوا.

- تميم... أتظن أننا سننتصر.

- سنفعل... وان لم يكن... سيأتي من يفعل.

هز "شمس الدين" رأسه موافقاً على كلماته، حتى وإن لم ينتصروا بنفسهم، فستأتي أجيال بعدهم لتفعل، سواء كانوا أبناء، أحفاد، أو حتى أحفاد لأحفادهم، فالنصر آتٍ عاجلاً أم آجلاً، وإن كانوا يطمحون بتعجيله.

تتدافع الأيام كسيل لا يعرف طرقه، سكون يحل على المملكة، لا ينذر سوى بكارثة قادمة، الجميع يعمل على قدم وساق، والقلوب تتقد خوفاً وقلقاً، وكلهم في وادٍ واحد، إما النصر أو الهلاك للجميع.

- تميم... جهاد... قد حان الوقت.

يهمس "شمس الدين" وأنفاسه مضطربة، يهز رأسه يمنة ويسرة مسلط ناظريه على ذاك المدفع المهول، أي مصيبة قد فعل، وأي عمل قد يواري عن الأعين.

- سننتصر.

تمتم "تميم" وهو ينظر لذاك السلاح المذهل، قد بات في يديه ما يدافع به عن موطنه، عن دياره الدامية، وكأنه يرى به الأمل والنجاح، سلاح للتفوق، للسيطرة، وللنصر.

بينما "جهاد" يتأمله بصمت مرعب، وكأن ملايين الأفكار الجهنمية تتخبط داخل عقله، هل سيكفي للانتقام لحبيبة روحه، أم أنه لن يطفئ النار الموقدة في فؤاده، وأي شيء قد يطفئها.

- بابا... عمي سمس... عمي ميم... ما هذا؟

نظر الجميع لتلك الصغيرة المتشبثة بثيابهم، وإلى تلك الضحكة البريئة على محياها، واحتار الجميع؛ بماذا يجيبون!

- انه سلاح يا غيثنا الصغير... سلاح لنحمي به من نحب.

أجابها "تميم" بعد أن نزل لمستواها، ووضع يديه على كتفيها، بكل ثقة يشرح لها أنه لحمايتهم، فالسلاح قاتل بيد من يقتل، ودرع بيد الحماة، ويجب على الجميع معرفة هذا، خصيصاً الصغار، عساهم يوماً يكونون السلاح والدرع الذي يحمي أوطانهم.

- هل نعيد خالتي نور به؟

- نعيدها... ونحمي كل الناس هنا... إخوتك، خالاتكِ، وأعمامكِ.

- خالة تسبيح وعمي عامر أيضا.

- الجميع يا غيثنا الجميع.

أنهى كلماته وطبع قبلة على جبينها، فتلك الصغيرة لها قلب يسع الجميع حباً، هي كما الصغار في عمرها أمل المملكة، والعالم أيضاً.

.

.

المكان مظلم، الصمت قاتل، ونبضات قلبي لا تهدأ، سلاسل تقيد زيلي بالقاع، وقُيدت يداي للخلف حتى أشعر أنها تكاد تقطع، يمكنني أن أجد الغرفة ممتلئة إلا جزئ بسيط في الأعلى بالكاد أصل اليه، فقط إن تمكنت من فك وثاقي.

- ما بكِ يا أميرة... ألا تحبين ضيافتنا.

صوت خشن طال مسامعي، ولا أزال لا يمكنني رؤية شيء، حتى أمسك وجهي بكفه، لأحاول الإفلات منه، فأصابعه تكاد تخترق جلدي، وفجأة أزال العصبة عن عيني لتتضح لي ملامحه المنفرة.

- لا تقلقي يا أميرة... فمعنا لن تتأذي.

صمت لبرهة، ثم أكمل مع ابتسامة على جانب فمه:

- لن تتأذي كثيراً... فأنتِ ورقتنا الرابحة.

خرج من الغرفة وصدى ضحكاته الحقيرة يتردد في المكان، وأنا هنا وحدي لا أقوى على فعل شيء، مكبلة بلا حول ولا قوة، ولا أدري إن حاول أحد إنقاذي أم لن ينتبه أحد لي، أنا خائفة... فقط خائفة.

تمتمت بيأس، وبالكاد أكبح دموعي:

- شمس الدين... من فضلك لا تتخلى عنى كما حاولتُ أن أفعل.

.

.

في مكان بعيد عن مملكة "إلكيدونيا"، عدد غير صغير من احصنة البحر يجرون المدفع الضخم، وعلى بعد منهم مكان خاوٍ من الأحياء، فقط بعض الصخور والنباتات.

يحيطني فقاعة هواء لربما تكون نفسها التي أنقذتني بها "نور"، وأمامي ذاك المدفع المهول، سنحاول تجربته لنرى أي كارثة أتيت بها لهذا المكان النقي.

أخذت أحرك بعض التروس، وأومأت "لتميم" أنه حان الوقت، ليشير بيده لبقية المجاهدين لاتخاذ أماكنهم، دقيقة... دقيقتين... وانفجر صوت أصم الأذان، وقلب المكان رأسًا على عقب، وما أن زالت الغمة وهدأت الأمواج، ليظهر لنا أنه لم يبق شيء.

- لن يبقى أحد.

صفر "جهاد" بإعجاب، ولمعت عيناه مع ابتسامته الواسعة التي ظهرت على ثغره، بينما ربت "تميم" على ظهري، قبل أن يذهب إلى حيث يقف "جهاد".

- أحسنت شمس الدين... أحسنت.

يبدو أنها لن تكون كارثة حقًا، أو على الأقل بالنسبة لنا، نظرت للمكان الذي أزيل عن الواقع، لم يعد هناك أي أثر لما قد كان، ربما فقط بعض الفتات هنا وهناك، يا ويل "أكوديا" من...

.

.

أضواء خافتة، همسات متقطعة، أحلام تتدمر، ويُقرر حياة آلاف بين هذه الأيدي.

- أخبرتك ألا تقلق... فبين يديك الآن ما سيجبرهم على الخضوع لآكوديا.

ابتلع الآخر مشروبه، وأجابه:

- ليس الخضوع وحسب... أرغب بدمارهم... وسأبني مملكتي الخاصة.

- ستُبني... لكن لا تَنسني.

ابتسامة ارتفعت على جانب من فمه، وأجابه:

- لن أفعل.

ارتفعت ضحكاتهم بين ظلمات الليل، وكأن الليل ينطوي على بشاعة احاديثهم، وأقنعتهم الكاذبة.

.

- خالتي تسبيح... لماذا عمي سمس غريب؟

تساءلت "غيث" وهي تجمع بعض الزهور، لتجيبها الخالة "تسبيح" برفق:

- لأنه ليس من هنا... هو من مكان بعيد... مكان ساخن له أرض صلبة... ولا يحيطه الماء.

- فكيف يسبح اذًا... وماذا يأكل.

- خُلق لهم ما يأكلون منه... لديهم بحار، وأنهار، وبحيرات صغيرة يسبحون فيها... هو خُلق بطبيعة مختلفة عنا.

- وهل هناك من يشبهه.

جلست "غيث" تستمع باهتمام لحكاية أغرب من الخيال -بالنسبة لها- كحال الحوريات بالنسبة للبشر.

- ألست أنا أشبهكِ... بابا وعمكِ تميم... هناك من يشبهه أيضًا... ربما لديه طفلة جميلة مثلكِ... وربما أخ، أو أب.

- ليس لديه طفلة.

نفت بينما تعبث بالأزهار، لتسألها الخالة "تسبيح":

- وكيف علمتِ بذلك يا غيث؟

رفعت الأزهار تجاه وجهها، وأجابت:

- قال من قبل أريد زوجة وطفلة... يريد أن يلعب مثلي.

- اذا لنبحث له عن زوجة.

ضحكت بخفة لتجيبها "غيث" بجدية على مزاحها، وترفع حاجبيها بكل براءة:

- ألا يحب خالتي نور.

صمتت أمام جديتها، فيبدو أن تلك الصغيرة تدرك مالم يدركه الكبار، حتى وإن كان خيال طفلة، فربما يكون واقعًا لم يره سواها.

- ربما يا غيث... لكن هل تحبه نور.

- لا أدري... خالتي نور تحبنا جميعًا.

ربتت الخالة "تسبيح" على رأسها الصغير، وابتسمت برفق:

- بالفعل أميرتنا نور تحب الجميع... أعادها الله لنا سالمة.

- آمين.

رددت "غيث" الطفلة بكل ثقة وإيمان:

"أن تقبل يا رب دعاءنا".

فأي إيمان لدي تلك الصغيرة لتثق بأن الدعاء يُستجاب، وأي قلب محب قد رباها حتى باتت ورغم صغر سنها بتلك القوة والثقة، وأي أحضان قد تحفظها الآن، بعيدًا عن بطش الأعداء، دون أن يتلوث قلبها النقي بقذارة العالم.

وكأنه ما من أحدٍ فوق الأرض السوداء، ولا أحد تحت السماوات العالية سوى تلك الصغيرة الرقية، التي تدعو بكل ثقة أن دعاءها يُقبل، وليس ببعيد على الله أن يفعل.

"فيا الله... حرر كل المستضعفين، وارزقهم القوة لدفع الباطل، وابعث لهم جنودك يقاتلون أعدائك معهم... حتى ترتفع كلمة الحق، ويخبو سلطان الباطل، ويأمن الجميع موطنهم".

.

.

ظلام دامس، برودة تضرب أعماق العظام، صمت موحش تكسره تأوهات ذاك الشاب الملقى على الأرض، الدم يسيل من جانب فمه، وعيناه معصوبتان عن الرؤية، ويداه مكبلتان إلى الخلف مع قدميه.

- هل أنت بخير؟

صوت أنثوي يكسر الصمت، صوت محشرج بصرخات مكتومة، وكأنها تقاتل الدموع فلا تفر، ليجيبها بعد أن تحامل على نفسه، علّه يجد معها مخرج من هذا المكان.

- بخير... ربما... لا أدري أي ضلوعي قد كسر.

- سننجو أليس كذلك؟

خرجت الكلمات من فمها وهي تبحث عن أمل، أمل لنجاتها من عذاب يرهق روحها وجسدها، ليهز رأسه موافقاً وهو يرتب أنفاسه.

- سننجو... لا تقلقي.

ارتطم الباب بالجدار ليصدح صوت يتردد في جوف المكان، خطوات تقترب منه، ويمسك بشعره يد غليظة تجره جرًا.

- ألن تتكلم أيها الأرعن!!

ابتسامة ارتسمت على جانب فمه، وحادثه بسخرية:

- عندما يواريني التراب... سأتكلم حينها.

لكمة أتته سقطت عن إثرها أحد أسنانه، تلاها ركلات في كافة أنحاء جسده، تارة تصيبه في معدته، صدره، وتارات أخرى في وجهه، لم يسلم جسده، ولم يستسلم عقله.
وفي المقابل رجاء من ذاك الصوت الرقيق أن يتركه وشأنه، حتى ارتفعت أصوات ضربات تصيبها، وآهات تحاول أن تبتلعها عبثًا.

- افعل بي ما تشاء... لكن لا تؤذِها.

خرجت الكلمات مهتزة من ثغره، مختلطة بالدم والدموع، توقف بعدها صوت تلك الفتاة، وازدادت الضربات على رأسه، وعلى جسده الضعيف، حتى أغشي عليه وحل عنه ذلك المتوحش.

ساعات من الصمت، لا يزال بجسده الضعيف ممدًا على الأرضية الباردة، مع نزيف لا يتوقف، يفتح عيناه ببطء وقد أُزيحت تلك العصابة عنها، يتأمل المكان من حوله، ويحاول أن يعتدل علّه يتمكن من فك وثاقه.

جدران تتآكل من الرطوبة، باب معدني ثقيل، فتحات ضيقة في الأرضية يصدر منها صوت نحيب خافت، لامس قلبه بعض الشفقة والألم لتلك المسكينة، أي ذنب قد اقترفته لتسجن في مثل هذا المكان.

- هل أنتِ بخير؟

توقف النحيب لوهلة، وأتاه الرد بصوت بُحّ من البكاء:

- بخير أظن... ماذا عنك؟... أيمكنك الصمود.

ألقى برأسه إلى الجدار بارتياح، وقد اعتدلت دقاته قلبه لسبب يجهله.

- يمكنني الصمود... لا يمكنهم قتلي بتلك السهولة.

استمع لضحكة خافتة منها جعلت قلبه يضطرب من جديد، وأتاه رد ممتلئ بالأمل.

- بالطبع لا يمكن قتلك.

صمتت لوهلة، ثم أكملت:

- هل تشعر بالجوع؟... لدي طعام يفيض على حاجتي.

نظر لتلك الفتحة الضيقة وقد امتدت يد صغيرة مكبلة، مغطاة بالجروح، تمسك بقطعة من الطعام، فتحامل على آلامه وتقدم نحوها، وأخها منها بعد أن فكّ وثاق يديه، بنهم تناولها، وكأنه لم يتناول الطعام من أيام، غير مبالٍ بالماء الي يغطيه، أو إن كان صالح للأكل حتى، هو طعام ولا شيء سواه.

- متى تظن أن بإمكاننا الخروج من هنا؟

أتاه صوتها برجاء، فنظر إلى بعض العظام المكبلة في أطراف الغرفة التي تحد من حريته، وارتسمت على شفتيه ابتسامة بلهاء، وتكلم بكل ثقة:

- قريبًا... سنخرج قريبًا من هنا لا تقلقي... وإن لم أخرج أنا حياً، سأخرجكِ أنتِ من هنا... ستعودين لأحبتكِ... أعدكِ.

- أرجو أن يخرج كلانا... هناك من ينتظرك، أليس كذلك؟

استند إلى الحائط مفكرا، هل لا يزال أحدٌ ينتظر عودته، أم أن الجميع يأس من الفكرة.

- ربما يفعل أحد.

.

.

أيا موطني ما بال حلمي...

بعودةٍ ولقياك يختفي...

يا ديار هل لنا نصيبٌ...

بضم للرفاق والأهلِ...

هل ترانا يا قلب نلتقي...

أم أنه حلم كان ويختفي...

.

.

"هل ترانا نلتقي... أم أنه كان حلم جميل يختفي"

.

ما ضاقت إلا لتفرج.. فلا فجر إلا بعد أن ينسدل الليل بسواده على كل الأحلام.

رجة هزت أرجاء المكان، جعلت الجدران تتساقط حتى كسرت السلسلة التي قيدتها بالأرض، ففرت الى الغرفة التي تعلو زنزانتها حينما غطى الماء أرجاء المكان، لتجده يصارع الموت كحال أول لقاء لهما، لكن على عكس ذلك اليوم أنقذته دون تردد.

- نور... يا أميرة... اتبعي الممر المنهار حتى نهايته... القائد تميم في انتظاركِ.

تكلم مجهول من خلف الباب الذي يرفعه، جعل قلبها يتراقص فرحًا لخروجها من هذا المكان المشؤوم.

صرخات من كل مكان وصوت صفير مزعج يصم الآذان، يهربان من تلك الانهيارات قبل أن يدفنا أحياء تحتها، ويفران لرفاقهم من يأمنون أرواحهم بين أيديهم.

- نور... يا غاليتي هلم إلي.

مد "تميم" يده تجاهها، بعد أن ساعد "شمس الدين" على الخروج، بينما "جهاد" على رأس المدفع يجهز لإطلاق دانة جديدة، وإبادة آكوديا عن بكرة أبيها.

ضمها "تميم" بعد أن اطمأن على جراحها، وهو يطمئن قلبها المرتجف، و "شمس الدين" يلتقط أنفاسه بصمت ويبكي جراحه دون كلام.

.

.

باتت مملكة "أكوديا" خرابًا ولا شيء غيره يعلوها، وقف المجاهدون بصمت يتأملون ذاك الدمار، وكأن نارًا كانت موقدة وبالكاد تخمد في صدورهم، وقف "جهاد" إلى جوار ذاك الضيف الذي لاق الكثير بسببهم.

- مرحبًا بعودتك يا رفيقي... سلمت يداك على هذا الإبداع.

ارتفعت ضحكاتهما ولكن صمت "جهاد" لوهلة بعد أن اتسعت عيناه وبلهفة دفع "شمس الدين" بعيدًا حماه بها، وأصيب في كتفه بشيء أسقط زراعه أرضًا، ليجتمع المجاهدون وعلى مقدمتهم "تميم" يقاتل من تبقى من أعدائهم، بينما "نور" تحاول بقلة حيلة أن توقف نزيفه، ورفيقنا واقف بلا حول ولا قوة داخل فقاعته التي قد تنفجر في أي لحظة ويصير قتيلًا دون قتال.

دقائق مضت انتصر المجاهدون، وامتزجت المياه بدماء أفراد "أكوديا" القذرة، باتت الجثث في كل مكان، وما من ناجٍ منهم.

.

عاد الجميع لمملكتهم حاملين لواء النصر على صدورهم، وقتلاهم في قلوبهم؛ ليزفوا البشرى لأهاليهم وأحبتهم، لكن الدنيا لا تبتسم لأحد، لا تراهم يداوون جراحهم إلا وتضيف لهم ما يقتل أفئدتهم، وتهديهم اليأس بجرعة زائدة.

الجثث ملقاة في كل مكان، جثث ممزقة لأطفال لم تزال البراءة بعد من وجوههم، جثث مكبلة محرقة للكبار، حتى النساء لم يسلمن من بطشهم اغتصبوا أرواحهم النقية، قتلوهن أحياء آلاف المرات حينما اعتدوا عليهن وحينما فرغوا أنهوا حياتهن.

تصلبت أجساد الجميع ألمًا وحسرة على أهاليهم، زوجاتهم، أبنائهم، عائلاتهم قتلت دونما رحمة، حينما لم يكن لديهم أحد ليدافع عنهم، بلا سلاح أو عتاد قتلوهم.

في أحد الأركان تستغيث إحداهن أن ينقذها أحد من براثن وحش قذر استباح جسدها الطاهر بلا حول منها ولا قوة، ليستل "شمس الدين" رغم جراحه سيف أحدهم ويتقدم بخطى مشتعلة بالغضب والكراهية تجاه ذاك الوغد، يمسكه من شعره بعنف ليجذبه بعيد عنها، ويرفع سلاحه عاليًا وينحره كالشاة -رغم اعتذاراتي للشاة على تشبيهها بما لا يليق بها- ليتدفق دمه النجس على الأرض الطاهرة، ويلوث وجه ذاك البطل الغيور.

يغض بصره ويخلع عنه ردائه ويغطي به تلك المسكينة، تلك الضعيفة التي كانت تحلم يومًا أن تصير عروسًا لشاب نقي كحال قلبها، لكن أبى القدر إلا أن تكون فريسة لوحش شهواني قذر.

تتجمع القلوب وتكاد تنفطر، ويتجمع الرجال على مأساتهم يبحثون عن أي ناجٍ أو ذرة أمل، ويحمل الوزير زراعه الممزقة، رفقة الأميرة الناجية وذاك الضيف الجريح تجاح قاعة الملك، بحثًا عنه وربما عن القاتل المغتصب.

بخطى ثقيلة يتحركون وكلٌ يحمل جراحه وهمومه، ويحملون رغبة أو ربما هي أمنية ألا يخسروا كل شيء، وما أن يفتح الباب وتطأ أقدامهم أرض القاعة، حتى هجم علي الرجال أفراد مسلحون أسروهم ووضعوهم في مقابل ذلك الكرسي العالي أمام ذلك الرجل الذي لطالما ادعى أنه فرد منهم، وهو يضع ساق على الأخرى وثوبه الملطخ بالدماء.

- جهاد يا جهاد... يا أيها الشوكة المزعجة في حلقنا.

امتعض وجه "جهاد" لما أدركه، أن الخائن بينهم لم يكن سوى الملك.

- بئسًا لك أيها الخائن القذر.

بصق كلماته عليه، ليقف ويتقدم تجاه "جهاد" ويركل وجهه، يدوس عليه بحذائه القذر ويحادثه ويكأنه يعلوه:

- أين ذهبت طاعتك لولي أمرك أيها النمرود... هل تعصي.

ارتفعت ضحكات بلا خجل في القاعة، ليدير عيناه في المكان ويلمح طفلته الصغيرة تقبل عليه دون تردد، فيهلع قلبه ويصيبه الرعب على ابنة روحه حينما تأتي لتضرب ساق ذلك الذي يدوس على وجه أبيها الحبيب.

- ابتعد عن بابا... ابتعد.

ينظر لها باحتقار ويدفعها بعيدًا بنفس القدم التي داس بها على وجه أبيها؛ لتسقط الصغيرة أرضًا ويرتفع صوت بكائها مستغيثًا بأبيها.

يحاول "جهاد" أن ينجد ابنته لكن يكبحه ثلاثة أفراد ويلصقون وجهه بالأرض، ليرى مصير ابنته بعينيه، ليتقدم ذاك الخائن ويرفع سيفه عاليًا عازمًا على إيذاء الصغيرة، لكن يفلت "شمس الدين" بطريقة ما ويخبئ "غيث" بين أحضانه ويتلقى ضربة السيف على ظهره بدلًا عنها، ليفديها وإن كان بروحه.

.

خذلان.. دمار.. خيانة.. وصدمات تتوالى على رأس الأميرة لتجعلها تتساءل "أي خطأ اقترفته يداي لتسقط على رأسي كل هذه المصائب".

تقف في وهن وقد تيبس جسدها أمام خيانة والدها وتلك الحقارة التي أبداها، سقط سيفه على ظهر ضيفها لينتفض على إثره وتتناثر الدماء على أرض القاعة، لكنه لازال متمسكاً بتلك الصغيرة غير آبه بجراحه أو موته.

تحركت لتقف أمام سطوة والدها، رغم جراح جسدها وروحها، وكأن من يقف أمامها ما هو إلا عدو يجب مواجهته، فهو من تركاها بين يدي أعدائهم -من استحلوا أرضهم، أطفالهم، وأعراضهم، وحاولوا الاعتداء على شرفها- وبكل الكبرياء والشجاعة التي بالكاد بقيت لديها حادثته، رافعة كلتا يديها أمام وجهه، علّه يفيق من غفلته.

- أبي ماذا أنت بفاعل؟ أتؤذي رجالك وتسلم شعبك للعدو؟

رفع يده عاليًا ولطمها على وجهها حتى أسقطها أرضًا، وبقسوة لم تعهدها منه أجابها:

- تنحي جانبًا يا ابنة الجاهلة... ماذا تعرفين أنتِ لتقفي في طريقي؟

- وماذا يجب أن أعرف أخبرني؟ لماذا تخون وطنك؟

وضعت يدها على خدها علّها تبرد تلك الحرارة التي اشتعلت فيه، تكبح الدمع من عينها فلا تنهار أمام من يشمتون بها.

- لست بحاجة لأخبركِ أي شيء فأنت هوجاء جاهلة مثل أمكِ... وهذا ما كان يومًا موطني لأخونه.

أنهى كلماته بسخرية أربكتها، لماذا يصفها بالجهل؟ ولماذا يسخر من والدتها؟ ألم تكن زوجته؟ أليست هذه بدياره؟

- إذًا ماذا يكون؟ وأي جهل أحمل لتصفني به؟

لوى شفتيه وأدار عينيه بملل، وتراجع حتى جلس على ذاك الكرسي العالي، واضعًا قدميه فوق بعضها ومن حوله هؤلاء الأفراد الذين يدعموه.

- جاهلة أنتِ منذ صغركِ... لم أكن يومًا بوالدكِ لتلاحقيني في كل مكان منادية إياي بأبي... وهوجاء كما أمكِ تمامًا، فلولا معارضتها لي لكانت بيننا حتى الآن.

لايزال عقلها غير مدرك لما يحدث، ولأول مرة على مرأى ومسمع من الجميع تُكشف حقائق مخبئة من زمن، لا يدركها سوى الجالس هناك، وقد أغلقت أفواه كل كان يعلم بها قتلًا.

أمر من بجواره بأن يجلب الأميرة له، فجرها حتى باتت أمام قدمي ذلك الخائن، تنظر له بعينين خاوية بلا حول ولا قوة ليقرب وجهه من وجهها، ويضع سيفه على رقبتها الرقيقة، ويهمس بكرهٍ لها:

- بلغي تحياتي لأمكِ...

.

.

.

- بئسًا... من كان ليظن أن ذلك الوضع هو الخائن.

أخذت أركض بين الممرات، بأنفاس لاهثة، قلب متطرب يأكله القلق، وسلاح سأرويه بالدماء الليلة.

لم أظن أنه سيتمادى لدرجة أن يصل إلى أن يتحالف مع أكوديا، بعد توليه العرش ومقتل أختي، لم أكن لأرغب سوى أن تمر الأيام بسلام، لكن الدنيا لا تحلو لأحد؛ وها هي تضع غاليتي أمام ألسن اللهب.

- أخي تميم... تمت المهمة والرجال على أهبة الاستعداد للقتال.

- أحسنتم... ليسرع الجميع ويتبعني... سننقض عليهم.

- ثم؟

- لم ينجُ أحد...

أومأ لي وتحرك بالمقاتلين، حملت حينها قوسي وسهمًا استعدادًا لأي طارئ، كنت أستمع لدقات قلبي تطرق في أذني، وأنفاسي التي وصلت عنان السماء، حتى داهمتني صورة أختي ممددة على الأرضية الباردة بوجهها الشاحب ودمها المسال من جانب فمها؛ حينما رأيت ذلك الوضيع الخائن بسيف مغطى بالدماء موضوع على عنق غاليتي نور.

"لن أفقدكِ يا غاليتي مرتين".

.

.

رفع "تميم" قوسه وسدد بسهمه؛ ليصيب ذاك السيف الموضوع على عنق الأميرة ويسقط بعيدًا، التفت إليه الخائن حينما رُفع سيف عاليًا ليتفاداه بجرح في وجهه، تراجع على إثره عدة خطوات للوراء ليعلم أي وضع هو به الآن.

- بئسًا لك أيها الخائن القذر.

اندفع "تميم" تجاه الأميرة ليطمئن قلبه دون أن يبرح نظره عنه، خبأها وراء ظهره وتقدم بخطوات تملؤها الثقة، بقلب مشتعل بالحقد والكراهية، وأنفاس تكاد تحرق الجميع غيظًا.

- لم تعجبني يومًا منذ أردت الزواج من أختي... ولا حين تقلدت مناصب الحكم... ويبدو أن رأيي كان في محله.

- لم أكن لأطلب رأيك في، ولا في أعمالي يومًا.

أجابه بابتسامة ساخرة رسمت على محياه، ليستل "تميم" سيفه ويرفعه في وجه من أذاقه مرارة أيام مرت كالجحيم على قلبه.

- ما أنت سوى كلب وضيع لآكوديا... ويجب على الكلاب أن تتبع أسيادها حتى الموت.

رفع سيفه تباعًا في وجه ذاك المجاهد المخلص، وأجابه محتقرًا:

- سيدي ليس في آكوديا كما تظن.

- أعلم.

أدار عيناه بملل وتقدم سريعًا بضربة قطع بها الكلام، وكاد أن يقطع بها عنقه لولا أنه صدها بصعوبة.

شرارات السيوف تتطاير مختلطة بالدماء، والأعين تشاهد في ترقب على أمل أن يقتل من باع ديارهم بثمن بخس.

أرواح الأفراد من حولهم تتلقفها أيادي المجاهدين الطاهرة، لينظفوا بسيوفهم المكان من دناستهم وينتقموا لشرف نسائهم وأرواح قتلاهم.

- ألا تذكر كيف رحلت أختك... فقط اتبعها ومت.

اضطرب قلبه المقاوم حينما ذكرت أخته، رفيقة روحه التي غادرته مبكرًا، لكن عزيمته لا تتزعزع ليحافظ على ما تبقى من أثرها، ليصب ذاك البغيض الزيت على نار فؤاده ويكمل بسخرية:

- فقط أنا من قتلها... حينما رفضت التعاون معي... لازلت أذكر ثرثرتها عن كيف لي أن أترك وطني وذلك الكلام الفارغ... أي وطن هذا أخبرني أنت!

ألجم لسانه واهتز جسده لوهلة أفقدته السيطرة على سير المواجهة ليصيبه بضربة أخرى، ليست في قلبه ولا روحه هذه المرة، وإنما بضربة أذهبت بضوء عينه جعلته لا يرى الحياة سوى ملطخة بالدماء، بدماء أخته، دماء رفاقه، وان لم يتمالك نفسه فسيرى دماء غاليته "نور" ينسال على الأرض كما سالت دماء أمها الراحلة.

اندفع بغضب أعمى ما تبقى من بصره، وأخذ يرفع سيفه لينهال عليه بكل عصبية وكراهية، حتى إن كسرت يداه، وان أعميت عيناه، وإن أزهقت روحه فما كان ليترك هذا القاتل المغتصب دون جزاء.

تعثرت خطوات الخائن ليسقط أرضًا، ويهوي "تميم" بنصل سيفه على عنقه عله ينحره أو يمزق حنجرته ليصمت للأبد، لكنه يمسك حد السيف بكلتا يديه تتمزق أوتاره وتندفع الدماء منها على عنقه، وكلاهما يدفعان بكل قوة بهدف، إما قتل الآخر أو إبعاد الموت عن نفسه، والفارق هو من يصمد حتى النهاية.

- فلتمت وحسب.

- ليس بعد... دقائق ويأتيني المدد.

ابتسم "تميم" باحتقار له وأردف:

- للأسف فقد انتهت حياته من ساعات مضت... وها أنت هنا ستلحقه.

بهتت ملامحه، اقفهر وجهه، وسرت رعشة في جسده، وتملكه الرعب.

- لأجل أختي التي قتلتها... لأجل شعبي الذي خنته وقتلته... لأجل غاليتي التي يتمتها واستغفلتها طوال هذه السنين... لأجل موطني الحبيب... مُت.

ضغط بما تبقى من قواه على السيف حتى مزق حنجرة هذا الخائن، توقف جسده عن الحركة، انتهت حياته وانتهت كل انتهاكاته، لربما لم تبرد النار في قلوب من لهم ثأر عنده، ولربما ماتت معه العديد من الأسرار التي يجب أن تكشف... لكن يكفي أن الحياة استراحت من شره، واكتفى الشعب من نفاقه.

.

خارت قوى "تميم" وسقط على ركبتيه، رفع راسه للسماء يشكو همه لخالقه، تفر من بين شفتيه آهات ترثي حاله، وتهم "نور" نحوه تختبئ بين زراعيه تبحث عن مأمنها في أحضانه المرتجفة، وكأن نفسها الضعيفة ترجو القوة بين دمائه وسلاحه وجسده المنهك.

رفع يديه بضعف ومسح على شعرها الأسود، وهمس برفق لها عله يبث بعض الطمأنينة في قلبها:

- لا بأس عليكِ يا غاليتي لا بأس... قد رحل الآن وإلى الأبد... ولن أسمح بأذيتكِ.

- لكن هل أستحق حمايتك وأنا لم أكن أدرك فعلته كل هذه السنين.

تنهد واحكم على ضمها له وهمس بكل حب:

- لأدمرن العالم بأكمله فداء لك يا غاليتي.

تركت "نور" العنان لدموعها لتبرد الألم في صدرها، وحينما هدأ ارتجاف جسدها، سقط جسد "تميم" المجاهد الصابر أرضًا مغشي عليه، بينما ذاك الوزير المخلص "جهاد" كان قد سقط منذ زمن وبرد جسده لفقدانه الكثير من الدماء، أما عن الطفلة المحبة "غيث" فقد نامت حينما أعيتها تلك الصدمات التي حلت على رأسها، و "شمس الدين" الضيف المقاوم القادم من السطح مغشي عليه دون أن تنفلت قبضته عن تلك الصغيرة الضعيفة.

كلٌ ترك العنان لجسده بالراحة تاركًا كل الحمل على الأميرة لتنظيف كل الفوضى التي حدثت، وقد كانت أهلًا لتلك المسؤولية الثقيلة كما حالها دومًا، ولربما تخف على أكتافها الأحمال برحيل من كان سببًا في الهم على رؤوسهم.

"هل بات موطني حرًا... أم أن الدنيا تضع لنا الطعم"

.

هدوء وسكينة تعم المكان، الجميع يسير في حالة غير مألوفة، وكأنه حلم سيطر على المملكة بكل أفرادها، وكأنهم يهيمون على وجوههم مغيبين عن الواقع، فمنذ مقتل الملكة والحياة لم تنعم بمثل هذه الراحة.

ببطيء يُنظف المكان ويُرفع كل الحطام، يُعالج المصابون ويُدفن الموتى، والجميع في حالة صمت مطبق، حتى الأميرة تستقبل الوفود من الممالك المجاورة بكل وقار، وبكل هدوء تتمالك أعصابها عن طردهم.

منهم من يصطنع الفرح:
"لقد كنا واثقين من انتصاركم... أحسنتم"

ومنهم يقول بتهكم:
"كيف طاوعتكم أنفسكم على ابادتهم... أما من رحمة في قلوبكم"

ومنهم من أظهر الطاعة وآخرين طلبوا التحالف، وجميعهم لا يعنون شيء، جميعهم كاذبون جبناء، ولا أحد يستحق الاهتمام.

.

.

في الممر الطويل تمشي "نور" ببطء، ترتدي قناع الصبر والقوة حتى وصلت لأحد الأبواب، طرقتها ودخلت ليقابلها "تميم" بابتسامة بشوشة، حينها فقط خلعت عنها كل قناع وأخرجت حقيقتها، أمام من يساندها وإن أخطأت، يدفع عنها الضرر، ويكون درعها الحامي.

ارتجفت شفتاها، وامتلأت عيناها بالدموع، ليفتح لها زراعيه على مصرعيهما لتستقر في أحضانه، تاركة العنان لعيناها بالبكاء، ولجسدها بالارتجاف كما يشاء، ويبادلها بالمقابل "تميم" بالسكون، يمسح على رأسها ويهمس لها:

- كفاكِ بكاء يا غاليتي... الآن الجميع آمن.

رفعت رأسها لتواجهه وأجابته:
- لكن يا خالي... يأتوننا الآن وكأننا لم نعاني يومًا.

- وإن يكن... نحن من عانى، ونحن من صبرنا، ونحن من انتصر.

- وهل يُرضي أن نعامل وكأننا نحن المذنبون.

مسح وجهها بكفه وأردف:
- ذنبنا أننا كنا الضحايا... لكن ليس بعد الآن.

أومأت له، وارتسمت ابتسامة راضية على وجهها:
- بالطبع فأنت الملك الآن.

.

.

في قاعة واسعة يتحرك الأطباء من مريض لمصاب، ومن جريح لآخر، يداوون الجميع دون كلل أو ملل، وعلى أحد الأسرة يفتح "شمس الدين" عيناه ببطء، وبينما هو مستلق على صدره تضع الصغيرة "غيث" احدى الكمادات الدافئة على كتفه، وبلطف تمسح على رأسه، ليبتسم:

- مرحبًا بغيثنا الحلو.

- صباحك خير عمى سمس... كيف تشعر الآن؟

حاول الاعتدال لكن جراح ظهره حالت دون ذلك، لتمسكه تلك الصغيرة من ملابسه ليستلقي.

- أنت جريح عمي سمس... يجب أن تستريح.

- بالطبع يا طبيبتي الصغيرة... سأستمع لإرشاداتكِ.

نفخت وجنتيها بغضب طفولي لطيف كحالها.

- لست صغيرة... عمري ستة... أنا أتعلم الآن بالفعل.

رفعت ستة أصابع في وجهه، ليفاجئه الرقم الذي قالته، فقد ظن -كما جميعنا- أن عمرها بأقصى تقدير ثلاث أو أربع سنوات، لكنه رسم ابتسامة واسعة على وجهه وأردف:

- وماذا تفعل طبيبتي الكبيرة اذًا؟

- أنا أرعاك حتى يعود معلمي.

- ومن هو معلمكِ؟

- عمي عامر هو معلمي... سأتعلم لأصبح مثل ماما... طبيبة تداوي جروح الجميع.

ابتسم وقد خفق قلبه لحلاوة كلماتها، رغم صغر سنها فقد وضعت هدفها بالفعل، وقد وضعت قدمها على أول الطريق بالفعل، تلك الصغيرة التي ستصبح أمل المستقبل.

- ستكونين طبيبتي أنا يا غيثي.

أتى صوت "جهاد" من الجهة المقابلة لهما، فحاول "شمس الدين" أن يدير وجهه حتى يراه ويطمئن قلبه على صديقه ومنقذه، ويرسم على وجهه ابتسامة واسعة.

- ألا يمكننا أن نتشارك طبيبتك الماهرة.

تحركت "غيث" حتى وصلت لحيث يستريح والدها، طبعت قبلة على جبينه ومسحت على كتفه حيث انتهت زراعه، وتكلمت بكل حب:

- أنت بخير الآن بابا؟

- بكل خير بوجودك يا دواء أبيكِ.

بأنامله مسح على خدها برفق وكأنه يستمد منها قوته، حتى قاطعه "شمس الدين" بسؤاله:

- أخبرني يا جهاد... هل تعلمون أطفالكم في سن صغيرة.

- يبدأ تعليمهم حين يبلغون السادسة... ويتعلمون بالفعل القراءة والكتابة قبل ذلك.

- مذهل.

- كل فرد منا بعد أن يتعلم ويصبح جيدًا بما يكفي... يبدأ في استقبال التلاميذ كمعلمه تمامًا... أتدري لدي بالفعل ثلاثة منهم.

قرأ "جهاد" الانبهار على وجه "شمس الدين" فأكمل:

- عمى عامر لديه تسعة بالإضافة إلى ابنتي الصغيرة، وقد كانت زوجتي إحدى تلاميذه بالفعل.

ارتسمت ابتسامة حزينة على وجهه وهو يمسح على وجه "غيث" ثم أكمل بمزاح:

- لكني أغبط تميم... أقصد الملك تميم الآن... لديه ما يجاوز الثلاثة والثلاثون تلميذ... ثلاثة وثلاثون مقاتل في سبيل الوطن.

تساءل "شمس الدين":

- تميم أصبح الملك! متى؟

ضحك "جهاد" بخفة وأجابه:

- حين كنت نائمًا... تشاورنا واتفقنا على أن يكون هو ولي أمرنا.

- لكن أليست نور هي الأميرة.

- لكنها امرأة... ليس عيبًا بها، لكن الرجال خلقوا ليقفوا على قارعة الطريق... وحين يصبح الوضع آمنًا ينادون حبيباتهم ونسائهم ليقفوا إلى جوارهم... لا أن يُدفع بهن ليواجهن الصعب ويتبعهن الرجال.

- أنت محق.

- وأيضًا نور من رشحته للحكم... هي تدرك تمامًا أن دورها ليس في القيادة، وإنما في أن تحيط بيتها بالحب والسكينة... كل منا يدرك وظيفته في هذه الحياة.

"لكلٍ وظيفة في الحياة خلقنا لأجلها، ومن يحيد عنها تقلب حياته ولا تصح"

- عمي سمس... بماذا أدعو لك؟

رفع حاجبيه متسائلًا عن كلماتها.

- أنت أنقذتني... لذلك يجب أن أدعو لك... لأشكرك.

ابتسم ومسح على رأسها وأجابها:

- ادعي بأن يعود موطني حرًا... أن نبتسم من جديد.

وضعت كفيها الصغيرين أمام فمها وأخذت تتمتم بكلمات صادقة، من قلب بريء يرجو السعادة للجميع، ومن ثم مسحت وجهها ووجه "شمس الدين"، ليبتسم الجميع على براءتها وينطقوا "آمين"، بقلب يرجو بكل صدق أن يتقبل الله من فؤادها الصغير.

.

مرت عدة أيام تعافت فيها جراح الجميع، كانت كفترة نقاهة بعد استئصال ورم خبيث، ربما الجراح الظاهرة فقط؛ أما عن جراح قلوبهم لربما يداويها الزمان.

التئمت جروح "شمس الدين" وبات بمقدوره الحراك بحرية، وإعتاد "جهاد" على استخدام زراع واحدة، واحتضان صغيرته "غيث" بها بالفعل، أما عن "نور" فعادت لأعمالها في تعليم الصغار القراءة والكتابة، بينما تقلد "تميم" زمام الحكم وأثبت جدارته.

.

.

تسير الحياة ببطء ويأتي موعد رحيل ذاك الضيف المقيم، ورحيله ثقيل على تلك القلوب التي تعلقت، لكن موطنه متشبث بأضلعه، مقيم في قلبه ولا يغيب حتى اليوم الذي يتوقف فيه عن النبض؛ سيظل ينبض "أني فداك موطني".

ودّع جميع الرفاق واستودعهم، وبقى من سكنوا القلب واستوطنوه، "جهاد" الصديق اللطيف ومرافقه طوال فترة اقامته، "غيث" حلو الرحلة وسكرها، "تميم" رفيق الجهاد وشريك المقاومة.

و "نور" منقذته، من نبض لها فؤاده ولهًا، تلك النجمة بعيدة المنال، اللحن الذي لم يتكرر، وذاك الحلم الذي سيبقى حلمًا.

- عمي سمس... هل تعود؟

تشبثت تلك الصغيرة بأطراف ملابسه، سائلة مالا إجابة له، ليجيبها بابتسامة بشوشة:

- لربما يا غيثنا الحلو... ربما.

- لا تنسنا يا صديق... لربما تعود لنا يومًا.

ضمه تجاهه وابتسم:

- لن أفعل... ستحفظون في قلبي قبل عقلي... وربما نصبح مثلكم يومًا... ويعود موطننا.

- ستعودون... حتمًا تعودون ويأتي ربيعكم.

تبادلا الإماءات والابتسامات، واقترب منهم "تميم":

- لتبقى منتصرًا يا شمس الدين... ولتبقى شمسًا تضيء للجميع الحياة... ابق حرًا.

تصافحا وضما صدريهما تجاه بعضهما، وباتت على بعد منهم تقترب على استحياء، تتردد أتطيع قلبها أم تصمت.

- شمس الدين... ألا تبقى؟

ابتسم لها بأسى، ومسح عنقه ينتقى الكلمات قبل أن يفسد كل شيء بتهور.

- وددت لو أفعل... لكنه موطني لا أتخلى عنه... ووددت لو أدعوكِ له لكنه غير آمن حتى يستقبلكِ... سننظفه من كل العبث والقذارة، ولربما تأتيه يومًا لتري جماله.

- سأدعو حتى يعود آمنًا.

- سلمتِ.

تنهد لوهلة وابتسم:

- كوني سعيدة يا أميرة...

اقضم كلماته وابتلع "ياء" الملكية في قلبه، فهي لن تكون له، وهو لا يناسب أميرة من أعماق المحيط.

ابتسما وتحرك "شمس الدين" ناحية الخارج، حيث يرافقه "جهاد" لآخر الرحلة وتنتهي مرافقته حين يعود لموطنه.

- لربما تأخذ قيلولة حتى نصل.

أومأ وأغمض عينيه، ليصبح الواقع حلمًا، وتبدو الحقيقة كجزيء من خيال.

.

.

صوت يكاد يكون هامسًا آتٍ له، يهزه برفق ويناديه:

- هل أنت بخير؟؟

.